23

بيت النقب – 2

سيارةٌ تستهين بأكوام الحجارة والصخور في النقب، وأصدقاءٌ فرنسيون مرحون ومبتهجون مثل أولاد في مدينة ملاهي.

أما أنا، فأنتظر بخشية لحظة لن تتأخر. لحظة حيث، لحظة حيث... سأرى بيت أمي مرة أخرى. هذا البيت الذي زرته معها حين كنت في الخامسة عشرة، هذه الزيارة الشهيرة... أعود إليه اليوم وأمي لم تعد، أعود وعمري يقارب عمرها حين زارته، أعود هذه المرة مع ابني، سأورثه منظر بيت جدته هذا. وبعد ذلك ليتدبر الأمر كما تدبرته.

أسيعود إليه بعد ثلاثين، أربعين سنة مصطحبًا ابنه أو ابنته؟ أسيعود إلى بير السبع ليعاود رؤية البيت ويريه لأبنائه، ليجدَ من جديد هذا الخيط الرفيع

والمتين دائمًا وأبدًا الذي يشدنا ويربطنا بهذا المكان؟ لا لم ننسَ ولن!

في أحياء بير السبع القديمة، في مدينتها العتيقة، يقع البيت. لا يجد أصدقاؤنا صعوبة في معرفة الطريق فهناك قريبي سالم وهو يوجههم عبر الهاتف. نعم سالم مازال هنا! يعيش في غزة وقد غدا جدًّا لأربعة أطفال. نسي، وينقبض قلبي، تقودنا إليه السيارة وأرى البيت، أراه وأتعرف عليه. عند نزولي منها تقع مني ألة التصوير وتنكسر. ليكن! اقترب وأنا ممسكة بيد ولدي، نسيت الآخرين ولم يبقَ إلا البيتُ مركونٌ على زاوية الشارع. مغلقٌ، كلُّه مغلقٌ، وأكثر من مغلقٍ، النوافذ باتت جدرانًا والباب القديم الجميل استبدل بباب بشع من الحديد عليه كلمات بالعبرية. ماذا حدث؟ ما هذا الذي كُتب عليه؟

ضباب في الرؤية. كأني على حافة هاوية. أستجوب بنظراتي ستيفان صديق ساري. يرد:

– أصبح كنيسًا، كنيسٌ صغيرٌ للحي.

آه يا للأرذال! يا للأرذال! أقولها في نفسي... أطرح سؤالي:

– هل يمكننا الدخول؟

لا، إنه مغلق. تتابعت استجواباتي... كيف هذا، مغلق؟ من قرر ذلك؟ ولماذا؟ وما يعني الأمر؟ وكيف بات من الداخل؟ وأثاث أمي ما حلّ به؟ وأنا وابني إذًا؟ إذًا، لا شيء! نحن بمواجهة جدار، هذا كل شيء.

في كل الأحوال يبرع الإسرائيليون بلا جدال في بناء الجدران، بل يبرعون جدًا. أدور حول بيت أمسى هو الآخر جدارًا لي، أمرر كفي على هذا الجدار بحركة يائسة وأوجه نظراتي نحو ابني كأني أشرح له ما لا يشرح. ألفّ حول البيت مرة مرتين ثلاث... أدور بسرعة، فخطواتي عصبية ومتخبطة لا تريد لي البقاء أكثر، أسعى قدر جهدي للسيطرة على مشاعري. زيارةٌ باهتة بيتٌ باهت تاريخٌ باهت.

لا أرغب بأي تواصل، بأي مشاركة للنار المتأججة في قلبي. درتُ عائدة نحو السيارة وأنا أتجنب بنظراتي كلَّ شيء، كلَّ بشر كلَّ حائط كلَّ بيت...

أطرق وحين أرفع رأسي يقع نظري على ستيفان وهو يلتقط صورة للبيت... لعلّه يتعاطف مع مشاعري.

نرحل على عجل. في السيارة الجو ثقيل ومع محاولاتي للتحكم بأحاسيسي فلابد أن ملامح وجهي تنطق بكل القلق والغضب المعتملين بداخلي. حالتي الآن كما كانت عندما كنت مع أمي وابن خالتي سالم حين هربنا من "الزيارة".

الجوّ في السيارة موبوء. أحاول بصعوبة السيطرة على نفسي وأردد بصوت منخفض:

– الله يلعنكم! الله يخرب بيتكم!

ونعود إلى بيت حنينا، إلى الحواجز و... و...